

تفسير البحر المحيط

@ 490 @ مخالفة الأمر ، وعداوة الله للعبد ، مجازاته على مخالفته . { وَمَلَكُوتِهِ }
وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ } . أكد
بقوله : وملائكته ، أمر جبريل ، إذ اليهود قد أخبرت أنه عدوهم من الملائكة ، لكونه يأتي
بالهلاك والعذاب ، فرد عليهم في الآية السابقة ، بأنه أتى بأصل الخيور كلها ، وهو القرآن
الجامع لتلك الصفات الشريفة ، من موافقته لكتبتهم ، وكونه هدى وبشرى ، فكانت تجب محبته
 . وردّ عليهم في هذه الآية ، بأن قرنه باسمه تعالى مندرجاً تحت عموم ملائكته ، ثم ثانياً
تحت عموم رسله ، لأن الرسل تشمل الملائكة وغيرهم ممن أرسل من بني آدم ، ثم ثالثاً
بالتنصيص على ذكره مجرداً مع من يدعون أنهم يحبونه ، وهو ميكال ، فصار مذكوراً في هذه
الآية ثلاث مرار ، كل ذلك رد على اليهود ودم لهم ، وتنويه بجبريل . ودلت الآية على أن
الله تعالى عدوٌّ لمن عادى الله وملائكته ورسله وجبريل وميكال . ولا يدل ذلك على أن المراد من
جمع عداوة الجميع ، فالله تعالى عدوٌّ ، وإنما المعنى أن من عادى واحداً ممن ذكر ، فالله
عدوه ، إذ معاداة واحد ممن ذكر معاداة للجميع . وقد أجمع المسلمون على أن من أبغض
رسولاً أو ملكاً فقد كفر . فقال بعض الناس : الواو هنا بمعنى أو ، وليست للجمع . وقال
بعضهم : الواو للتفصيل ، ولا يراد أيضاً أن يكون عدواً لجميع الملائكة ، ولا لجميع الرسل
 ، بل هذ من باب التعليق على الجنس بصورة الجمع ، كقولك : إن كلمت الرجال فأنت طالق ،
لا يريد بذلك إن كلمت كل الرجال ، ولا أقل ما ينطلق عليه الجمع ، وإنما علق بالجنس ، وإن
كان بصورة الجمع ، فلو كلمت رجلاً واحداً طلقت ، فكذلك هذا الجمع في الملائكة والرسل .
فالمعنى أن من عادى الله ، أو ملكاً من ملائكته ، أو رسولاً من رسله ، فالله عدوٌّ له . .
وقال الماتريدي : يحتمل أن يكون الافتتاح باسم الله ، على سبيل التعظيم لمن ذكر بعده ،
كقوله تعالى : { فَأَنَّا لِلَّهِ خُمُسَهُ } ، وخص جبريل وميكال بالذكر تشريفاً لهما
وتفضيلاً . وقد ذكرنا عن أستاذنا أبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير ، قدس الله روحه ،
أنه كان يسمي لنا هذا النوع بالتجريد ، وهو أن يكون الشيء مندرجاً تحت عموم ، ثم تفرد
بالذكر ، وذلك لمعنى مختص به دون أفراد ذلك العام . فجبريل وميكال جعلاً كأنهما من جنس
آخر ، ونزل التغاير في الوصف كالتغاير في الجنس ، فعطف . وهذا النوع من العطف ، أعني
عطف الخاص على العام ، على سبيل التفضيل ، هو من الأحكام التي انفردت بها الواو ، فلا
يجوز ذلك في غيرها من حروف العطف . وقيل : خص بالذكر ، لأن اليهود ذكرهما ، ونزلت الآية
بسببهما . فلو لم يذكر ، لكان لليهود تعلق بأن يقولوا : لم نعاد الله ؟ ولا جميع ملائكته

؟ وقيل : خصاً بالذكر دفعاً لإشكال : أن الموجب للكفر عداوة جميع الملائكة ، لا واحد منهم . فكأنه قيل : أو واحد منهم . وجاء هذا الترتيب في غاية الحسن ، فابتدء بذكر ا ، ثم بذكر الوسائط التي بينه وبين الرسل ، ثم بذكر الوسائط التي بين الملائكة وبين المرسل إليهم . فهذا ترتيب بحسب الوحي . ولا يدل تقديم الملائكة في الذكر على تفضيلهم على رسل بني آدم ، لأن الترتيب الذي ذكرناه هو ترتيب بالنسبة إلى الوسائط ، لا بالنسبة إلى التفضيل . ويأتي قول الزمخشري : بأن الملائكة أشرف من الأنبياء ، إن شاء ا ، قالوا : واختصاص جبريل وميكال بالذكر يدل على كونهما أشرف من جميع الملائكة . وقالوا : جبريل أفضل من ميكال ، لأنه قدم في الذكر ، ولأنه ينزل بالوحي والعلم ، وهو مادة الأرواح . وميكال ينزل بالخصب والأمطار ، وهي مادة الأبدان ، وغذاء الأرواح أشرف من غذاء الأشباح ، انتهى . ويحتاج تفضيل جبريل على ميكائيل إلى نص جلي واضح ، والتقدم في الذكر لا يدل على التفضيل ، إذ يحتمل أن يكون ذلك من باب الترقى . ومن : في قوله : { مَن كَانَ عَدُوًّا } { شرطية . واختلف في الجواب ف قيل : هو محذوف ، تقديره : فهو كافر ، وحذف لدلالة المعنى عليه . وقيل الجواب : { فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ } ، وأتى باسم ا ظاهراً ، ولم يأت بأنه عدوٌّ لاحتمال أن يفهم أن الضمير عائد على اسم الشرط فينقلب المعنى ، أو عائد على أقرب مذكور ، وهو ميكال ، فأظهر الاسم لزوال اللبس ، أو للتعظيم والتفخيم ، لأن العرب إذا فحمت شيئاً كررته بالاسم الذي تقدم له : { لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْكَافِرِينَ } ، وقول الشاعر :